تطور الدرس اللغوي
في الأندلس

د. محيي الدين صالح
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة منتوري/قسنطينة

*** سكان الأندلس:**

جمعت الأندلس أجناسا مختلفة انصهرت جميعها تحت حكم الإسلام وأسهمت في بناء حضارة لاتزال معالمها قائمة حتى الآن، وهذه الأجناس هي:

أ – العرب: هم الجنود الفاتحون الآتون من المشرق ثم المهاجرون منه بعد الفتح، وهم الفئة الغالبة، منهم من ينتسب إلى العدنانيين ومنهم من ينتسب إلى القحطانيين، وقد كان القحطانيون أكثر عددا [1]. قال المقري في النفح: إن القحطانيين كان فيهم الأزد والأنصار وجذام وتجيب وذو رعين وكلب والحضرميون، أما العدنانيون فكان فيهم كنانة وقيس عيلان وربيعة وتميم [2].

وقد توزع العرب الداخلون إلى الأندلس المهاجرون إليها في جميع البلاد المفتوحة، وسكن معظمهم المدن، أما الأقلية منهم ففضلت الإقامة في الريف [3].

ب – البربر: هم سكان المغرب العربي قبل الفتح الإسلامي. وقد أنعم الله عليهم بالإسلام، إذ فتح العرب المسلمون بلادهم قبل فتح الأندلس فامتزجوا بهم، وكان لهم الفضل الأكبر في فتح الأندلس بعد ذلك. وقد استأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف [4].

جـ – الأسبان: هم السكان الأصليون للأندلس، وقد كانوا تحت حكم القوط عند الفتح الإسلامي، وهم مسيحيون كاثوليك، وقد انحصر مقامهم بعد الفتح، في القسم الشمالي من الأندلس، أما من بقي منهم بالمناطق الداخلية المفتوحة فهم إما "مسالمة" أو معاهدون، أما المسالمة فهم الأسبان الذين دخلوا الإسلام وأما المعاهدون فهم أهل الذمة الباقون على مسيحيتهم المؤتمنون على دينهم وأرزاقهم.

د – المولدون: هم أبناء المسلمين من المسالمة في الغالب، ويرى الأستاذ أحمد أمين أنهم نتاج تزاوج العرب بالبربر أو العرب بالإسبانيات والصقالبة [5]. وهم الجيل

الذي شكل المجتمع الأندلسي بعد زمن من الفتح إذ غلبوا على بقية الأجناس الأخرى.

هـ – الصقالبة: أطلق هذا اللفظ على أسرى الحرب التي كانت تدور رحاها في أروبا إبان العصور الوسطى، وكانوا يُحملون إلى الأندلس ويُباعون للمسلمين هناك، ثم توسع معنى لفظة "الصقالبة" فشمل أيضا أسرى المسلمين على حدود الأندلس إبان العهد الثاني من الخلافة، فأصبح بذلك لفظ الصقلبي يعني "الرقيق الذين من أصل أجنبي سواء في ذلك من كانوا من بلاد أوربا أو من أسبانيا ذاتها" [6] وقد فكت رقاب كثير منهم، وسكن معظمهم قرطبة، وولوا مناصب هامة، ومال جلهم إلى الشعوبية والطعن في العرب [7].

و – اليهود: ضمت الأندلس الإسلامية ضمن من ضمت من الأجناس اليهود. وقد كانوا موجودين هناك قبل الفتح، وكانوا مضطهدين أيام الحكم القوطي لها[8]، ولذلك فإنهم قد رحبوا بالفاتحين المسلمين، وولاهم خلفاء المسلمين وأمراؤها وظائف مرموقة، وبلغ بعضهم درجة الوزارة. وقد أقام معظمهم في غرناطة وأليسانة وكان منهم الفلاسفة والعلماء، وكانوا واسطة في انتقال علوم العرب إلى أوربا وترجموا الكتب العربية إلى العبرية ومنها إلى اللاتينية [9].

*** لغات الأندلس:**

هذه هي الأجناس التي حوتها الأندلس. ولاشك أن مجتمعا قد ضم هذه الشرائح المختلفة

لابد أن تكون مظاهر الحياة فيه قد تنوعت، ولنا أن نتساءل عن حال لغات تلك الأقوام ومزاحمتها للعربية التي لاشك أثرت فيها وتأثرت بها خاصة في العهود الأولى بعد الفتح، وهي التي ضمت حكم الأمويين للأندلس.

قبل فتح المسلمين للأندلس كان هناك لغتان: لغة الحكام القوط، وهي اللغة الجرمانية، ولغة السكان الأصليين وهي لغة رومانسية أولاتينية عامية [10] وقد

عرفت هذه اللغة الأخيرة لما أنتقل المسلمون إلى الأندلس بـــ"العجمية" وهي تجمع بين لغة القوط في ألفاظها ولهجات أخرى لاتينية عامية.

وقد كانت العبرية دارجة بين اليهود هناك في طقوسهم الدينية و لم تتعد ذلك الإطار حتى دخول العرب إلى الأندلس فكان ذلك عاملا مهما على إحيائها بعد أن ضيق القوط الخناق عليها، وقد أصبح اليهود يترجمون علوم العرب إليها – كما سلف الذكر – بحكم أن اليهود أقرب إلى معرفة لسان العرب، ثم يتم ترجمة تلك العلوم من العبرية إلى اللغات الأروبية لأن اليهود أدخل في الأمم الأروبية وعقيدهم أقرب إلى عقائدهم.

وبدخول العرب والبربر الفاتحين زاد تعقد اللسان الأندلسي بزيادة لغاته وتشعبها، فكان للعربي لغته وللبربري لغته وللأسباني واليهودي لغتهما، ولكن اللغة العربية حظيت بمنزلة عليا بحكم أنها لغة الغلبة والدين الجديد، ومن ثم أثرت في لغات الأقوام الأخرى أكثر مما تأثرت بها. وقد كان لزاما على المسلمين الجدد أن يتعلموها قبل أن يتطلعوا إلى معرفة تعاليم الإسلام. وهذا لايعني أبدا أن العربية قد أثرت في غيرها إلى درجة ذوبانها أو انقراضها، فالبربرية مثلا قد استمرت دارجة إلى جانب العربية، وكان البرابرة يتخاطبون فيما بينهم بها، أما العرب فكانوا يخاطبونهم بالعربية لقدم عهدهم بها نسبيا، ولا يزال البربر في بلدان المغرب العربي على صورتهم تلك.

وقد انصهرت تلك الألسنة جميعها في لغة واحدة عرفت بـــ"لغة المولدين" غير أن ألفاظ العجمية الأسبانية وألفاظ اللغة العربية كانت هي الغالبة عليها.

وفي الأندلس التقت اللهجات العربية وتلاحمت بعد أن استحال ذلك في المشرق موطنها الأصلي، فكنت ترى اليمني والنجدي والعراقي والشامي والمصري

يجمعهم بيت واحد وهدف مشترك، ومع تقدم الزمن ونشوء جيل جديد اختفت الفروق التي كانت تميز كل لهجة عن الأخرى.

وقد كان طبيعيا أن لاتجري العربية الفصحى على لسان الأندلسي المولد بسهولة وأن تتعرض لتحريف في ألفاظها وتراكيبها، واستمر ذلك إلى عهد متأخر من حكم المسلمين فهذا أبو علي الشلوبيني (ت645) "كان نحويا كبيرا، طبقت شهرته الآفاق في النحو، ومع ذلك كان لحانا، وكان لايكاد يبين" (11) ولا يعني هذا أن الجيل المولد لم يستطع التفقه في معاني العربية، ولكن الأمر الذي استعصى عندهم هو نطق بعض أصواتها.

* نشأة الدرس اللغوي والنحوي في الأندلس:

انشغل الفاتحون العرب في أول أمرهم بنشر الإسلام وغرس مبادئه في نفوس الناس ولذا فإن اهتمامهم بالعلوم والفنون قد تأخر نسبيا، أضف إلى ذلك أن الداخلين إلى الأندلس منهم في بداية الفتح لم يكونوا من ذوي الثقافات العليا، فقد كان معظمهم من الجند والبربر. ولم يبدأ اهتمامهم بالعلوم إلا بعد أن هدأت الأوضاع وقدم من المشرق مهاجرون جدد كان فيهم العلماء والفنانون.

وقد كان الفاتحون الأوائل ومن قاموا بأمر دولتهم متعصبين لدينهم، خائفين عليه في بيئته الجديدة، وكانوا يرون ألا علم إلا ماجاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولذلك فقد حالوا دون انتشار العلوم العقلية وعلى رأسها العلوم الفلسفية أسوة بما هو جار في المشرق من محاربة لتلك العلوم؛ يقول ابن خلدون إنه لما فتحت أرض فارس - وكان أهلها يشتغلون بالفلسفة - "وجدوا فيها كتبا كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه.." (12) وهكذا طرح

الأندلسيون علوم الفلسفة وغيرها من العلوم العقلية الأخرى في بداية عهدهم أيضا وركزوا على تعليم الناس العلوم الدينية من قرآن وحديث وسير وفقه، وقد كانت المساجد تكاد تكون المركز الوحيد الذي يتم فيه تلقين تلك العلوم.

وكما تأخر اهتمام الأندلسيين بالعلوم العقلية تأخر أيضا اهتمامهم بالعلوم اللغوية، إلا أن بداية اهتمامهم بهذه الأخيرة كان سابقا على الأولى نظرا لحاجة العلوم الدينية إليها. وأول صورة ظهر بها الدرس اللغوي والنحوي في الأندلس تتمثل في نشوء طبقة من المؤدبين حملت على عاتقها تعليم الناشئة علوم العربية في المساجد إلى جانب العلوم الدينية. ذكر الزبيدي أن أولئك "المؤدبين" كانوا "يعانون إقامة الصناعة (النحو) في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، و لم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية" [13]. وازداد اهتمام الأندلسيين بعلوم العربية شيئا فشيئا فاستقدموا من المشرق العلماء والكتب، وسعى بعضهم للسفر طلبا للاستزادة من علم المشارقة.

إن الدراسات اللغوية والنحوية في الأندلس لم تكد تنفصل عن الدراسات الدينية والأدبية وغيرها، وذلك على مر العصور، وخاصة في عهودها الأولى، ولنا في يحيى بن مجاهد الفزاري [14] خير مثال على النحوي الأندلسي في العصر الأول، فقد قال: "كنت آخذ من كل علم طرفا فإن سماع الإنسان قوما يتكلمون في علم وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة" [15]. وكذلك كان أيوب المعافري الجياني [16] فقد وصفه أحد علماء بغداد بقوله: "الناس عندنا كل ذي فن منفرد بفنه، وهذا رجل يتكلم مع أهل الفنون كلهم في فنونهم" [17].

ولعل مزج النحو واللغة بموضوعات أخرى عند الأندلسيين – منذ الفتح حتى منتصف القرن الرابع – هو السبب الذي جعل الزبيدي يجمع في طبقاته بين اللغويين والنحويين الأندلسيين في حين قسم علماء البصرة والكوفة إلى قسمين نحويين ولغويين.

لقد كان أبو علي القالي مثال النحوي واللغوي الأعلى بجمعه بين أصناف العلوم المختلفة، وهو ما لاحظه بعض الدارسين من "أن أبا علي القالي النحوي والأديب كان الصورة المثلى لمن جاء بعده من النحاة" (18).

وعلى كل حال يمكن القول – على الرغم مما ذكرناه – أن الدرس اللغوي والنحوي في الأندلس قد تطور تطورا تدريجيا عرض له بعض الدارسين وقسمه بعضهم إلى ثلاث مراحل تاريخية هي:

أ – **مرحلة التكوّن والبناء:** تمتد من فتح الأندلس سنة 92هـ إلى نهاية القرن الثالث الهجري، تميز النشاط اللغوي خلالها بالتدريس، ومناقشة بعض القضايا الجزئية مناقشة شفوية، وقلت المؤلفات اللغوية والنحوية، وأكثر ما ظهر منها كان يتعلق "باللغة من حيث صلتها بغريب الحديث" (19) مثل كتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام، ثم إنها كانت تحتوي على قضايا وأفكار سبق أن أسهب المشارقة في الحديث عنها و لم يأت فيها الأندلسيون بجديد يستحق الذكر مما جعل الزبيدي يضيق بكثرة تكرارها، قال في ذلك: "فإني رأيت علماء النحو في زماننا هذا وما قاربه قد أكثروا التأليف فيه وأطالوا القول على معانيه فأملوا الناظرين وأتعبوا الطالبين بتكرار معان قد بينت وركوب أساليب قد نهجت فلم يخل أكثرهم بغير إعادة ما تقدم إليه والتكثير فيما سبق إلى القول عليه.." (20) فهذه إشارة واضحة من الزبيدي تدل على أن نحاة الأندلس حتى عصره كانوا يدورون في فلك نحاة المشرق و لم يتمكنوا من إضافة جديد إلى الدرس النحوي.

وأهم نحاة هذه المرحلة هم:

1 – جودي بن عثمان [21] **(ت198هـ)**: وصفه الدكتور شوقي ضيف بأنه "أول نحاة الأندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحوي" [22] وقيل إن له مؤلفا في النحو .

رحل جودي إلى المشرق وأخذ عن الكسائي والفراء من الكوفيين، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس [23].

2 – عبد الملك بن حبيب السلمي [24] **(ت238)**: عالم الأندلس الذي جمع بين علم الفقه والحديث وعلم اللغة والنحو والأدب، وكان من القراء المؤدبين وقيل إن له مؤلفا في إعراب القرآن [25].

3 – مفرج بن مالك المعروف بـ"البغل": من نحاة المائة الثالثة. كان مؤدبا ، تخرج على يديه كثير من المتعلمين، وهو آخر من ذكره الزبيدي من الطبقة الرابعة من نحاة الأندلس ولغويّيها ، وقال إن له شرحا على كتاب الكسائي [26].

4 – محمد بن موسى بن هاشم المعروف بـ"الأفشنيق" [27] **(ت307)**: هاجر إلى المشرق ولقي أبا جعفر الدينوري بمصر فأخذ عليه كتاب سيبويه رواية وانتسخه منه ولما عاد إلى الأندلس أقرأه لطلابه بقرطبة. وقيل إن له مؤلفات في الأدب منها: "شواهد الحكم" و"طبقات الكتاب" [28].

ويوجد نحاة آخرون ينتمون إلى هذه المرحلة إلا أن معظمهم لم تذكر لهم مؤلفات ولا كان لهم نشاط كبير، ويعد هؤلاء الأربعة أبرزهم على الإطلاق.

ب – مرحلة الشباب والنضج: تشمل هذه المرحلة القرن الرابع الهجري. وتتميز بازدياد الاهتمام بالدرس اللغوي والنحوي بشكل كبير، وذلك بقدوم أبي علي القالي إلى الأندلس سنة 330هـ في زمن عبد الرحمن الناصر (300-350هـ)[29]. وقد استقر أبو علي في قرطبة يدرس ويؤلف وهو ينال التشجيع

والإكرام [30] وقد تخرج على يديه خلق كثير. وقد ألف في الأندلس مؤلفات لغوية نحوية كثيرة أخذها الناس عنه، وأهمها: المقصور والممدود وفعلت وأفعلت، وكتابه في القصائد والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها ، وكتاب البارع في اللغة [31]، وهي في معظمها كتب تعالج أجزاء فقط سواء في اللغة أو في النحو، مع ملاحظة أنها تنحو بالدرس اللغوي النحوي نحو التخصص والتخلص من خلط العلوم به. وفي هذه الفترة أيضا بدأ الانفصال بين الأبحاث اللغوية من جهة والأبحاث النحوية من جهة ثانية [32].

وبدأت بذلك شخصية الباحث الأندلسي اللغوي والنحوي في الظهور بعد أن هضم مؤلفات المشارقة مدارسة وتدريسا. ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن جل اهتمام الأندلسيين في هذه المرحلة قد انصب حول الأبحاث اللغوية، و لم تحظ الأبحاث النحوية باهتمام كبير منهم، ولا شك أن ذلك يرجع إلى أسباب أهمها اثنان هما: أثر أبي علي القالي فيهم حيث أهتم باللغة أكثر من اهتمامه بالنحو، وقد سار تلامذته ومن عاصره على هديه، أما السبب الثاني فيتمثل - فيما يبدو - في صعوبة موضوعات النحو وتشعبها وقلة جدواها، هلى عكس الموضوعات اللغوية، ولعل الأندلسيين لم يجدوا حتى هذه الفترة من يمهد لهم السبيل ويأخذ بأيديهم في مسائل النحو، ذلك ما نستنتجه من إشارة الزبيدي أن محمد بن يحي الرباحي (ت358) هو أول من عُني بالنحو كبير علم [33].

ولقد كان الأندلسيون في المرحلة الأولى يعتمدون اعتمادا كبيرا على الهجرة إلى المشرق والأخذ عن علمائه، أما في هذه المرحلة فإن رحلاتهم قد قلت إذ امتلأت مكتبات قرطبة وغيرها من المدن بكتب المشارقة في شتى العلوم والفنون فأغناهم ذلك عن السفر.

وقد كان طبيعيا بعد هذا الاهتمام المتزايد بأمر اللغة العربية أن ينجب القرن الرابع عددا كبيرا من المهتمين بالبحث في مسائلها إلا أن معظمهم كانوا من ذوي الاتـــــجاه

اللغوي لا النحوي كما ذكرنا، وأبرز هؤلاء على الإطلاق عالمان هما:

1 – أبو بكر بن القوطية القرطبي (ت367): في بغية الوعاة أن "القوطية نسبة إلى القوط، وهم ينسبون إلى قوط بن حام بن نوح – عليه السلام – كانوا بالأندلس قبل الإسلام [34]. وفي موضع آخر أن جده قد تزوج من أميرة أسبانية رحلت إلى الشام في عهد هشام بن عبد الملك [35]، ومن ثم نسبت العائلة إليها. وقد تلمذ ابن القوطية لأبي علي القالي وصحبه زمنا طويلا، وكان أبو علي يثني عليه في المجالس ويقول إنه "أعلم أهل بلاده" وكانت كتب العربية في زمانه أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه، روى عنه الشيوخ والكهول [36].

ألف ابن القوطية كتبا لغوية متخصصة نهج فيها نهج القالي وغيره من المشارقة وأبدع فيها شيئا كثيرا، وكان أكثرها أهمية كتاب "الأفعال" ثم "المقصور والممدود" و"شرح صدر أدب الكاتب" لابن قتيبة. وقد لقي كتاب "الأفعال" قبولا كبيرا من الدارسين، وقال فيه المستشرق "جودي" إنه أقدم المعاجم العربية في هذا الباب [37]. ووصفه الضبّي في بغية الملتمس بأنه "كتاب في الأفعال لم يؤلف مثله"[38]. وقد عرّف فيه ابن القوطية بالأفعال الثلاثية ومصادرها والرباعية ومصادرها. وهو مرتب بحسب مخارج الحروف من أقصى الحلق إلى الشفتين.

2 – أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي (ت379) [39]: سمي بـ"الزبيدي" نسبة إلى زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة، وهو أبو قبيلة باليمن[40]. تلمذ الزبيدي لأبي علي القالي، وأبي عبد الله محمد بن يحيى الرباحي الجياني، قال عنه ابن الفرضي: "كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة"[41]. وقد غلبت عليه الرواية،

إذ كان كما قيل "أخبر أهل زمانه وأوحد عصره" [42]. وقد طارق مؤلفاته في الآفاق، فأقبل عليها الناس واستحسنوها، ومنها "طبقات النحويين واللغويين" وقد كان مصدرنا الأول في هذا المدخل، ومنها أيضا "أبنية الأسماء" و"مختصر العين" للخليل بن أحمد، و"لحن العامة" وكتاب "الواضح في النحو" وهذه الكتب لا تخلو من تقليد كتب المشارقة. ويبدو أن كتاب "الواضح" قد نهج فيه الزبيدي نهج أبي علي الفارسي في "الإيضاح" حتى أن بعض الدارسين يخلط بين الكتابين فيذكر كتاب الزبيدي باسم "الإيضاح" [43]، كذلك كتاب "لحن العامة" إنما سماه كذلك متأثرا بأبي حاتم السجستاني في كتابه "لحن العامة" [44] وهذا دليل على أن علماء اللغة الأندلسيين – خلال القرن الرابع – لم يستطيعوا أن يتخلوا عن تقليد علماء المشرق حتى في الأشياء الظاهرة.

والحقيقة التي لا يجب أن ننكرها أن هذه المرحلة قد حظيت بمؤلفات كثيرة في اللغة ومؤلفين كثيرين منهم: أبو القاسم الحسين المعروف بابن العريف (ت390)، وسعيد ابن القزاز، ذُكر للأول كتاب يشتمل على مسائل في النحو اعترض فيها على أبي جعفر ابن النحاس النحوي المصري، وذُكر للثاني كتاب في الرد على صاعد البغدادي في كتابه "الفصوص" الذي اشتمل على النوادر والغريب في اللغة [45]. ولا شك أن هذه الردود والاعتراضات تدل على أن عصر التقليد والتلمذة قد انتهى وأن عصر الاستقلال والإبداع قد بدأ وهو الفترة التي تلت القرن الرابع الهجري.

جـ – مرحلة الكهولة والإستقلال: تبدأ هذه المرحلة بانتهاء القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري تقريبا، وتنتهي بنهاية الحكم الإسلامي في الأندلس وسقوط غرناطة في أيدي الإفرنج سنة 898هـ/1492م.

نضج خلال هذه الفترة الدرس النحوي واللغوي واكتمل، وبرزت شخصية الباحث الأندلسي فيه أكثر. وإذا كانت المرحلة الأولى قد وجهت فيها

العناية إلى جلب المؤلفات والأساتذة من المشرق، وتميز الدرس فيها بأن كان درسا شفويا إلا في النادر القليل، وامتازت المرحلة الثانية بظهور مؤلفات كثيرة معظمها تدور حول ألفاظ اللغة وصيغها، نحا فيها أصحابها نحو المشارقة، فإن المرحلة الثالثة هذه قد خرج فيها كثير من الأندلسيين عن نهج أسلافهم فتخلوا عن التلمذة للمشارقة وتقليدهم في مؤلفاتهم ونهجوا لأنفسهم منهجا متميزا. وقد كان لمحمد بن يحيى الرباحي السالف الذكر فضل السبق في الخروج على تلك التقاليد التي ألزم الأندلسيون أنفسهم بها فترة طويلة. ولئن كانت المرحلة الأولى والثانية قد قلت فيها المؤلفات النحوية فإنها خلال هذه المرحلة قد حظيت بحصة الأسد.

إن استقلال نحاة الأندلس ولغوييها - بعد القرن الرابع - لا يعني أبدا طرحهم لآراء المشارقة في النحو خاصة، ولكنه استقلال في المنهج الذي "بدت مظاهره في الترجيح بين البصرة والكوفة، واختيار أقوى الرأيين وأصح النظريتين، كما بدت في العدول إلى رأي يخالف رأي المدرستين،وفي الاستدراك على المتقدمين من النحاة" (46). مضافا إلى ذلك اعتمادهم الحديث النبوي الشريف وكذلك أشعار المولدين - عند بعضهم — مصدريْن من مصادر الاستشهاد في اللغة والنحو، وكان نحاة المشرق القدامى قد حددوا مصادر الاستشهاد وعصر الاحتجاج، فاعتمدوا في تقعيد العربية كلام العرب منظومه ومنثوره مصدرا أول، والقرآن الكريم مصدرا ثانيا، واختلفوا في الاستشهاد بالحديث، فلما تقدم الدرس النحوي في الأندلس قام علماؤه بإعادة جدولة تلك المصادر كالأتي:

القرآن الكريم ثم الحديث الشريف ثم كلام العرب. وذلك يدل على أن الدرس النحوي بالأندلس قد ظل يخدم الدرس الديني على مر القرون.

إن الدرس النحوي في الأندلس قد امتاز كذلك خلال هذه المرحلة بكثرة الردود والجدل، سواء أكان ذلك بين نحاة الأندلس أنفسهم أو بينهم وبين نحاة

المشرق. وقد أصبح نحاة المشرق ينظرون بإعجاب - خلال هذه المرحلة - إلى نحاة الأندلس، وأصبحوا يأخذون عنهم. ويعتبر القرن السادس خير الحقب من حيث كثرة علماء النحو وكثرة التأليف فيه، وهو الفترة التي كثر فيها أيضا أخذ المشارقة على الأندلسيين [47]. وكذلك كان القرن السابع، إذ حظي بعدد من النحاة الأعلام ألفوا في النحو مؤلفات كثيرة لا تزال مرجعا مهما حتى اليوم. أما القرن الثامن فكان فيه بقية من العصر السابق ولكنه كان شحيحا بالأئمة عقيما بالأفراد [48]. ولم يشتهر من نحاة القرن التاسع أحد نظرا لعدم استقرار الحياة العامة ومطاردة الإفرنج للمسلمين الذين تواصلت هجراتهم إلى بلدان المغرب العربي ومنها إلى المشرق.

إن ما نستنتجه مما تقدم أن الدرس النحوي العربي في الأندلس لم ينضج نضوجا تاما إلا ابتداء من بداية القرن الخامس الهجري وماتلاه من عصور. أما الفترة السابقة على ذلك فلا مجال للحديث عن الدرس النحوي فيها إلا بعض الإرهاصات والمحاولات الأولية التي اعتمد فيها أصحابها على النقل عن المشارقة واقتفاء أثرهم.

إن أبرز من مثل مرحلة الكهولة والاستقلال في النحو بالأندلس هم: ابن الإفليلي القرطبي (ت441)، وأبو الحسن بن سيده المرسي (ت358) صاحب كتابيْ "المخصص" و"المحكم"، والأعلم الشنتمري (ت476)، وابن السيد البطليوسي (ت521)، وابن الباذش الغرناطي (ت528) وأبو الحسين بن الطراوة المالقي (ت528)، وابن الرماك (ت541)، وأبو جعفر بن طلحة الإشبيلي (ت618)، وأبو القاسم السهيلي المالقي (ت581)، وابن مضاء القرطبي (ت592)، وأبو موسى الجزولي (ت607)، وأبو الحسن بن خروف الإشبيلي (ت609)، وأبو الحسن علي بن الضائع الإشبيلي (ت614)، وأبو علي الشلوبيني (ت645)، وأبو الحسن بن عصفور الإشبيلي (ت663)، وابن

مالك الجياني (ت672)، وأثير الدين أبو حيان الغرناطي (ت745)، وغير هؤلاء كثير ممن مثل المذهب الأندلسي النحوي، إذا جاز أن نسميه مذهبا، ومعظمهم قد ألف في النحو أكثر من مؤلف واحد.

ونشير أخيرا إلى أن هذه المراحل التي حددناها في تطور الدرس النحوي اللغوي بالأندلس قد أخذ بها دارسون كثيرون [49] إلا أن بعضهم اكتفى بتقسيم هذا التطور إلى مرحلتين، امتدت المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية القرن الثالث وشملت المرحلة الثانية الفترة الطويلة التي بدأت بانتهاء القرن الثالث وانتهت بسقوط غرناطة سنة 898هـ/1492م [50].

وقسمها آخرون إلى مرحلتين: مرحلة التلمذة والتقليد، وقد امتدت حتى نهاية القرن الرابع وجزءا من القرن الخامس وامتدت المرحلة الثانية، وهي مرحلة النضج والاستقلال حتى نهاية الحكم الإسلامي بالأندلس [51]. وهناك من قسمها غير هذه التقسيمات، فاعتبر أن الدرس النحوي قد استمر كوفيا حتى نهاية القرن الثالث، ثم بصريا كوفيا حتى أوائل القرن الخامس، ثم بغداديا خلال القرن الخامس، ثم استقل بعد ذلك [52].

ومهما يكن من اختلاف الآراء، فإنه يمكن أن نلاحظ في تطور الدرس النحوي بالأندلس خلال مراحله كلها، وهي أنه قد التزم بخدمة الدرس الديني واستأنس أعلامه بآراء نحاة الشرق ومذاهبهم، ولكنه لم ينضج إلا مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس.

الهوامش:

(1) انظر : المقري: نفح الطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968، 271/1.

(2) انظر: المرجع نفسه 271/1-279.

(3) انظر: د. حسين مؤنس: فجر الإسلام، ط1 القاهرة 1959، دراسة قيمة حول استيطان العرب في الأندلس.

(4) انظر: د. لطفي عبد البديع: الإسلام في أسبانيا، مكتبة النهضة المصرية 1969. ص32.

(5) انظر: أحمد أمين: ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية 1982، 2/3.

(6) الإسلام في أسبانيا. ص36.

(7) انظر: نفسه. 36-37.

(8) انظر: فجر الأندلس. ص387-389.

(9) انظر: الإسلام في أسبانيا. 33-34.

(10) انظر: ألبير مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة المصرية صيدا - بيروت 1967. ص17.

(11) ظهر الإسلام. 16/3.

(12) مقدمة ابن خلدون، تحقيق :علي عبد الواحد وافي، 1121/3.

(13) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط2، دار المعارف، مصر 1984، ص311.

(14) ذكره الحميدي في الجذوة (ص379) و لم يذكر تاريخ وفاته.

(15) الحميدي: جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966. ص379.

(16) ذكره الزبيدي في الطبقات (ص272) وقال: توفى سنة 302هـ.

(17) طبقات الزبيدي. ص273.

(18) د. محمد إبراهيم البنا: أبو الحسين بن الطراوة، ط1، دار الاعتصام القاهرة 1980، ص39.

(19) الحركة اللغوية في الأندلس. ص69.

(20) الحركة اللغوية في الأندلس، ص135-136، عن الاستدراك على سيبويه للزبيدي.

(21) ترجمته في طبقات الزبيدي. ص256.

(22) د. شوقي ضيف: المدارس النحوية، ط4 دار المعارف 1979، ص288-289.

(23) انظر: طبقات الزبيدي. ص256.

(24) ترجمته في طبقات الزبيدي. ص260.

(25) انظر: طبقات الزبيدي. ص260، والمدارس النحوية. 260.

(26) انظر: طبقات الزبيدي. ص273.

(27) في طبقات الزبيدي (ص281): "الأقشتيق" أي: بالقاف بدل الفاء، والتاء بدل النون، ولعله خطأ من المحقق. والذي أثبتناه هو ما ذكره الدارسون المحدثون، انظر مثلا: المدارس النحوية، ص289، وكذلك: النحو في الأندلس (رسالة مقدمة للحصول على درجة العالمية) تقديم: أحمد حسن كحيل جامعة الأزهر 1944. ص18.

(28) انظر: طبقات الزبيدي، ص281-282، والمدارس النحوية. ص289.

(29) انظر: المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، 71/4.

(30) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس. ص202

(31) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس. ص209.

(32) انظر: ابن السيد البطليوسي وجهوده في اللغة (رسالة ماجستير) تقديم: يوسف يعقوب الفلاحي. جامعة عين شمس 1975. ص55.

(33) انظر: طبقات الزبيدي. ص311.

(34) السيوطي: بغية الوعاة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 دار إحياء الكتب المصرية 198/1.

(35) انظر: ظهر الإسلام، 88/3-89.

(36) انظر: مقدمة كتاب "الأفعال" لابن القوطية، تحقيق على فوده، مصر 1952.

(37) انظر: مقدمة "الأفعال".

(38) الضبي: بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، القاهرة 1967. ص112.

(39) في "بغية الملتمس" توفى الزبيدي قريبا من سنة 330هـ وهو خطأ، انظر ص67.

(40) انظر: بغية الوعاة 85/1، ومقدمة "طبقات النحويين واللغويين".

(41) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضى، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966، وقد نقل ذلك السيوطي عنه في بغية الوعاة 85/1.

(42) مقدمة طبقات الزبيدي (ص2).

(43) انظر: "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المراكشي، تحقيق: د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، مصر 1980، 256/1.

(44) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس. ص118.

(45) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس. ص115.

(46) النحو في الأندلس. ص28.

(47) انظر: النحو في الأندلس. ص36-37.

(48) انظر: المرجع نفسه. ص44.

(49) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس. ص9.

(50) انظر: النحو في الأندلس، ص14 وما بعدها.

(51) انظر: أبو الحسين بن الطراوة. 10.

(52) انظر: المدارس النحوية، ص288 وما بعدها، وخصائص مذهب الأندلس النحوي. ص39-40.